

من تاريخ مدينة أم درمان الحضاري (شواهد أثرية)

قسم الآثار كلية العلوم الإنسانية
جامعة بحري

أ.د. عبد الرحيم محمد خير

مستخلص:

تحظى مدينة أم درمان بوضع وتقدير خاص من أهل السودان سيما وأنها تجمع كل إثنيات (أعراق) وثقافات هذا القطر. علاوة على ذلك، فقد اتخذها الإمام محمد أحمد المهدي عاصمة لدولته بعيد انتصار الثورة المهدية وإطاحتها بالحكم التركي- المصري في السودان (26 يناير 1885م). وتجدر الإشارة إلى أن تاريخ أم درمان القديم يرجع إلى عصور ما قبل التاريخ (300.000-3200 ق.م). ويتبدى ذلك في العديد من المواقع والمستوطنات الأثرية. ويلاحظ أن منطقة أم درمان تكاد تخلو من الآثار البارزة والشاخصة خلال فترة العصر الوسيط وحقبة الحكم التركي- المصري. وكانت تتكون في ذلك الزمان من العديد من القرى المتفرقة على امتداد الضفة الغربية لنهر النيل متخصصة في صناعة الصابون وصبغة النيل الزرقاء التي تستخدم في تلوين الثياب. ولعبت أم درمان وقتها دوراً مهماً كمركز للقوافل وتجارة العبور. فكانت تقع عند ملتقى طرق تمتد من الجنوب للشمال والغرب باتجاه وادي النيل. وتواصل المسير شمالاً... درب الأربعين، مسالك عبور صحراء بيوضة والطرق النيلية (البرية والنهرية). ويلزم التنويه إلى أن أكثر آثار أم درمان البارزة والماثلة للعيان حتى اليوم ترجع إلى عهد الدولة المهدية (1885-1898م) وتشمل العديد من القباب والمساجد والأبنية المدنية والعسكرية.

From the Cultural History of Omdurman: Archaeological Evidences

Abdelrahim Mohamed Khabir Hassan

Abstract:

Omdurman has acquired a special position and frequently honored by Sudanese as it embraces all ethnicities and cultural entities of the Sudan. Moreover, it was chosen by Mohamed Ahmed Al-Mahadi as a capital of his state immediately after the victory of the revolution that overthrew the Turco-Egyptian regime in Sudan (26th January 1885). It is noteworthy that the ancient history of Omdurman goes back to the prehistoric era (300.000-3200- B.C.) and manifested in numerous archaeological sites. Notable, the region of this city was almost devoid of visible and prominent monuments during the medieval and Turco-Egyptian periods. At that times it was composed of sprawling villages along the west bank of the Nile specializing in the production of soap and Indigo blue. It possesses a favorable position, being an area where several routes converge from the South and the West towards the Nile valley and proceed further north.... Darb al arba'een, trans-Bayuda route and the Nile routes (both land and river). However, the most remarkable antiquities of Omdurman have seen the horizon during the Mahadist time (1885-1898). Relics of historical importance in the form of gubbas (domed tombs), mosques, civilian and military premises were reported herein.

مقدمة:

تحظى أم درمان بمنزلة خاصة لدى عموم أهل السودان سيما وأنها تضم كافة إثنيات (أعراق) وثقافات هذا الوطن. بيد أن أهميتها في العصر الحديث - كما هو معلوم- مستمدة بشكل كبير من أنها كانت حاضرة دولة المهديّة (1885-1898م) التي تعتبر أول حركة وطنية قام بها السودانيون في العصر الحديث ضد المستعمر رغم أن طابعها وأهدافها كانا تقليديين وإسلاميين أكثر مما كانا لدوافع دنيوية محضة. وعرفت أم درمان بـ«العاصمة الوطنية» في مقابل الخرطوم التي ظلت قسبة البلاد الإدارية منذ العهد التركي-المصري (1823م). ويشير السجل الآثاري التاريخي إلى أن منطقة أم درمان شهدت بزوغ حضارات عريقة بدءاً من عصور ما قبل التاريخ وإلى العصور التاريخية اللاحقة (انظر الخارطة: شكل 1).

أصل التسمية أم درمان:

ربما كانت أقدم إشارة إلى أم درمان ذكرها المؤرخ ود ضيف الله في كتابه «الطبقات» (ضيف الله 1984: 180-181) في معرض حديثه عن الفقيه الشيخ حمد ود أم مريوم في عهد دولة الفونج (1646-1730م). وهناك ثلاث روايات عن أصل تسمية «أم درمان»، الأولى تزعم أن الاسم لامرأة تنتمي إلى أسرة مالكة تنتمي إلى دولة علوة المسيحية كانت تقطن في ذات المكان الذي قامت عليه المدينة عند مشرع الموردة التجاري. وكان لها ابن يسمى «درمان». وأطلق عليها اسم «أم درمان» تأدباً وتقديراً. وتقول الرواية الثانية إن الاسم لامرأة كان منزلها مكاناً آمناً بسبب ما يحيط به من سور آثاره كانت قائمة إلى عهد قريب على مقربة من شاطئ النيل بحي بيت المال. وكانت تلقب بـ«أم دار الأمان» والذي تحرف إلى «أم درمان». أما الرواية الثالثة فتذهب إلى أن أم درمان (بالفتح والهمزة والميم) لفظ عربي قحطاني الأصل بمعنى المرتفع. وسمي المكان للدلالة على طبيعته الطبوغرافية المتمثلة في ارتفاعه عن البرين الآخرين اللذين تقع فيهما مدينتا الخرطوم والخرطوم بحري الحاليتين. ولأم درمان اسم آخر وهو «وشل» ويعني المكان الكثير الماء. وأطلق عليها الإمام المهدي بعد أن جعلها عاصمة لدولته اسم «البقعة الطاهرة» (انظر الرابط الإلكتروني أدناه).

العمل الآثاري بمنطقة أم درمان:

سيشمل البحث إضافة إلى الأدبيات المنشورة، نتائج المسوحات والحفريات الآثرية في شمال مدينة أم درمان في فترات مختلفة خلال حقبة السبعينيات والثمانينيات ومطلع التسعينيات من القرن المنصرم (1973-1990م). ويلزم التنويه إلى أن مشروع العمل الآثاري لجامعة الخرطوم في منطقة شمال مدينة أم درمان قد بدأ عام 1973م مترافقاً مع البدايات الأولى لنشأة قسم الآثار بالجامعة. وأشرف على هذا العمل المسحي والتنقيبي عالم الآثار السوداني الأستاذ الدكتور أحمد محمد علي الحاكم (رحمه الله). وكان الهدف من هذا المشروع تدريب طلاب الجامعة على التطبيقات العملية للعمل الآثاري من مسوحات وتنقيبات والتي تشكل جزءاً أساسياً من متطلبات المنهج الدراسي المقرر. وتشمل هذه التدريبات العملية: نظم المسح والحفر والرسم والتصوير والتسجيل الآثاري. وبعد أن شب قسم الآثار بجامعة الخرطوم عن الطوق أصبحت منطقة حفريات شمال أم درمان أحد الروافد الأساسية لمشاريع البحث الآثاري لطلاب الدراسات العليا حيث شهدت تنقيبات لمواقع تؤرخ لفترات تاريخية مختلفة شكلت مادة علمية ثرة لرسائل ماجستير ودكتوراه داخل السودان (جامعة الخرطوم) وخارجه (جامعات كمبريدج ودرم وردينق وبرجن وساوثهامبتون) لكوادر سودانية تأهلت بشكل متميز وتدير الآن دولا العمل الآثاري بجدارة واستحقاق داخل الوطن وخارجه.

تقع منطقة التنقيبات الآثرية لجامعة الخرطوم شمال مدينة أم درمان وتمتد من وادي سيدنا جنوباً إلى خور الدشينا شمال جبل أم مرحي. وتحده هذه المنطقة من الجهات الغربية والجنوبية جبال كرري، والمعقل والقيسي والمرخيات، وحدها الشرقي نهر النيل. وتقع المنطقة برمتها على هضبة جيولوجية عتيقة متعرية من الصخر الرملي النوبي (Nubian Sandstone) تعلوها طبقات متباينة من الحصى والرمال الخشنة والناعمة، فضلاً عن تناثر بعض المنكشفات الصخرية من حجر البازلت على مدى البصر.

عصور ما قبل التاريخ:

وتجد الإشارة إلى أن الأعمال الآثرية الرائدة في هذه المنطقة ابتدوها عالم الآثار البريطاني المعروف أ.ج. آركل A.J.Arkeell الذي عين أول مدير لمصلحة الآثار السودانية (1938-1948م). وشملت هذه الأعمال مسوحات آثارية

لمواقع العصر الحجري القديم في وادي سيدنا وخور أبوعنجة فُصلت نتائجها في كتابه الموسوم بـ «العصر الحجري القديم في السودان الإنجليزي-المصري - Old Stone Age in the Anglo-Egyptian Sudan» .ويصل تاريخها بالمقارنة مع نظائرها في مواقع أخرى بشمال السودان (جزيرة صاي) إلى 300.000 ق.م. وتلت ذلك أعمال تنقيب في موقعين مهمين هما الشهيناب (1953م) والسروراب 2- (1978م) . فموقع الشهيناب الذي يرجع للعصر الحجري الحديث قام بحفره أنطوني آركل عام 1949م ونشرت نتائجه بين دفتي كتاب معنّون بـ «شاهيناب Shaheinab» عام 1953م. أما موقع السروراب-2 الذي يؤرخ لحضارة الخرطوم الباكورة فقد قام بالتنقيب فيه صاحب هذا المقال استكمالاً لأبحاثه في دراسات ما قبل التاريخ في إقليم الخرطوم. (1978-1980م) (Khabir 1981) التي نشرت نتائجها في دوريات علمية متنوعة بأوروبا وأمريكا الشمالية وبعض الأقطار العربية. وثمة إشارة هنا، وهي أن الموقع الأنموذجي لهذه الحضارة تم التعرف عليه في حفرة سابقة للآثاري آركل (1949م) وهو مستوطنة ترجع للعصر الحجري الوسيط (Mesolithic) تحتل مكان مستشفى الخرطوم التعليمي الحالي. ومن نتائج حفرة هذا الموقع الأنموذجي موجودات حضارية حجرية وعظمية (لحيوانات وأسماك ورخويات) علاوة على فخاريات ذات زخارف متموجة (Wavylines) تمثل السمة المميزة لهذه الحضارة والتي وجدت مستوطنات تشابهها في العشرات من الأماكن المتباعدة جغرافياً ، شملت وادي النيل ومنطقة البحيرات الاستوائية وشمال إفريقيا وغربها. وربما كان ذلك بدواعي اتصال حضاري مباشر أو غير مباشر، حيث إن الظروف الجغرافية المطيرة في عصر الهولوسين كانت مؤاتية للتنقل والتداخل الحضاري عبر بقاع شاسعة. وكان القاسم المشترك لهذه المستوطنات المنتمية لحضارة الخرطوم الباكورة هو اشتراكها في قيم ومفاهيم جمالية عبّرت عن نفسها بصورة جلية في نماذج مميزة من صناعة الفخار وزخرفته بطرز متفردة أبرزها الطراز ذو الزخرفة المتموجة المتصلة . وهذا التجانس القيّم والجمالي يعضد فرضية مؤداها أن هذه المستوطنات المتباعدة الأطراف تمثل أنموذجاً لمنطقة ثقافية مشتركة بؤرتها إقليم الخرطوم خلال المرحلة المتأخرة لحقبة ما قبل التاريخ في إفريقيا (خير 2005:10-11). وأكدت لنا حفرة موقع السروراب - 2 (قرية الباعوضة) عام 1978م والتي أشرف عليها كاتب هذه المساهمة وبالدليل اليقيني أن

أقدم صناعة للفخار في إفريقيا قد بدأت في أم درمان قبل ما يزيد عن عشرة آلاف عام من الوقت الحاضر (165B.C.+Cal. 8625). وقد قام بمعايرة Calibration التاريخين (90_+7380 ق.م؛ 80_+7420 ق.م) (Khabir1987:377-380) المعطاة للموقع وهما لعينات فحم حجري من المربع رقم 27 للطبقتين الثالثة والخامسة على التوالي الأستاذ الدكتور أزهرى مصطفى صادق (أستاذ الآثار بجامعة الخرطوم) بجامعة كولون (المانيا) (معلومة مبلغة شخصياً) (لوحة: 1-3) وعثر على فخاريات في كل من موقع جبل أم مرحي بشمال أم درمان (Elamin 110-and Mohammed Ali 2004:97) والسقاي في الضفة الشرقية لنهر النيل (Caneva 1983:149) ذات تواريخ شبيهة وإن كانت تقل بدرجة ملحوظة عن موقع السروراب -2 في أواسط البلاد. وتجدر الإشارة إلى أن العديد من مواقع العصر الحجري الحديث (3200-4500 ق.م) في شمال أم درمان (إسلانج ، النوفلاب ووادي سيدنا) وجنوبها (الصالحه) تم الكشف عنها خلال العقدين الماضيين. (Khabir 2008:33-270 and Salvatori et al 2014:243-42)

المجموعات النوبية وممالك كوش:

تشير الكشوفات الأثرية بشمال أم درمان إلى أدلة لحضارات يرجع بعضها إلى الألفين الخامس والرابع قبل الميلاد. فهناك مواقع لمستوطنات ومدافن بجزيرة إسلانج والنوفلاب والباعوضة (Khabir2008:33-42) عثر فيها على أدوات حجرية وعظمية وفخاريات وخرز ومشغولات من الألباستر (المرمر) والزجاج لها ما يناظرها في حضارات المجموعات النوبية (A&C) (3900-1500 ق.م) بشمال السودان وجنوب مصر، فضلاً عن حضارات كوش (كرمة ونبتة ومروي) (2500 ق.م- 350 ق.م) (Hakem1979:151-155). ولعل من المظاهر اللافتة للانتباه في تنقيبات شمال أم درمان الأعداد المهولة من الجبانات ومقابر التلال (Tumuli) التي تعود للفترة المتأخرة لما بعد مروي والعصور الوسطى المبكرة (350-543 م). وأطلق نفر من علماء الآثار على الموجودات الحضارية لهذه المقابر التلية «ثقافة تنقاسي» نسبة إلى الموقع النموذجي لهذه الثقافة الذي يقع على بعد 400 ميل في شمال السودان. ويربو عدد المقابر التي تؤرخ لـ «ثقافة تنقاسي» على أربعة آلاف تل أثري. وتتعدى هذه المقابر منطقة شمال أم درمان بمختلف الاتجاهات. ففي جنوب أم درمان أجرى باحث الآثار السوداني الرائد عبد الرحمن آدم (رحمه الله) حفريات جنوب

منطقة الفتيحاب (العشرة) بالاشتراك مع الآثار البريطاني كنيث مارشال. ونشر تقرير عن هذه الحفريات بمجلة الآثار السودانية (كوش - Kush) ، العدد الأول عام 1953م (46-Marshall and Adam 1953:40). وعثر على ما يماثل هذه المقابر التلية في كل من الهوبجي بالقرب من شندي وتنقاسي على مقربة من كريمة. ومن أهم سمات هذه المقابر أنها دائرية الشكل يعلوها الحصى والتراب من الخارج. ويبرز المخطط الداخلي لهذه المقابر أنها على هيئة حدوة الحصان (Horse-Shoe). ووجدت بداخلها هياكل عظمية لأفراد من مختلف الأنواع (الجنود) والأعمار وكلهم من عامة الناس. ويلحظ أن المتوفى يوضع بشكل ممدد (Extended) في أغلب المدافن. أما المقابر التي يوضع فيها المتوفى جاثماً بإنحناء (Crouched) فهي نادرة. ويضم الأثاث الجنائزي الأواني الفخارية وخرز الفيانس الأزرق وخرز قشرة بيض النعام والأسورة البرونزية ورؤوس السهام الحديدية ودبابيس الصيد والآنية والأدوات الزجاجية وغيرها. ولوحظ أن نذرًا يسيرًا من المقابر التي تنسب لـ «ثقافة تنقاسي» ذات شكل يشبه الطوة (المقلدة) أو بيضاوي له ما يماثله في حضارة البان قريف (Pan-grave) في النوبة السفلى قبل ما يزيد عن 1500 سنة خلت (152-ibid:154). وباجالة النظر في عادات الدفن الجنائزية التي وجدت في المقابر التلية يلحظ أنها ترجع للفترة المتأخرة لحضارة مروي وما بعدها في شمال أم درمان (موقع أم مرحي نموذجاً). وقد عرفت سابقاً بأسماء متعددة منها «تلال فخار علوة؛ حضارة تنقاسي؛ شبه المروية وما بعد مروي (15-El-Hassan 2006:38) (لوحة:4). ونلاحظ أنها متماثلة بدرجة كبيرة مع تلك التي تم التعرف عليها في شمال كردفان وفي المنطقة الممتدة من نبتة إلى الخرطوم، الجزيرة فسنار وجبل موية (إقليم النيل الأزرق)، فضلاً عن تشابهاتها التي لا تخطئها العين مع المعثورات الحضارية لذات الفترة التاريخية على امتداد إقليم النيل الأبيض. وقد أدى ذلك إلى افتراض إنها تمثل مجموعة ثقافية واحدة عادة ما توصف بـ «ثقافة تنقاسي» (154-Hakem 1979:155) (لوحات:5-6).

عهد الممالك المسيحية:

وبنهاية مملكة مروي (350م) استمر نموذج الدولة الثيوقراطية (Theocratic-State) في السودان القديم متمثلاً في ظهور الممالك المسيحية الثلاث (543-1504م) ، نوباتيا في أقصى الشمال وتمتد من أسوان إلى قرب

الشلال الثالث وعاصمتها فرس، والمغرة التي تحتل المنطقة الممتدة من قرب الشلال الثالث إلى الأبواب (كبوشية) وعاصمتها دنقلا العجوز في حين أن مملكة علوة وعاصمتها سوبا جنوب الخرطوم تشمل منطقة شاسعة تمتد من الأبواب شمالاً إلى القطينة على النيل الأبيض جنوباً كما ضمت أجزاء من عطبرة والنيل الأزرق حتى الحدود الإثيوبية وبعض جهات كردفان. ورغم أن المملكة الأخيرة قد ازدهرت لفترة طويلة نسبياً مقارنة بمملكتي الشمال واستمرت إلى مطلع القرن السادس عشر الميلادي وكانت منطقة أم درمان في حوزتها، إلا أننا لم نجد أثراً مادية بأم درمان تنسب لها. ولا ندري وضعيتها أم درمان في عهد مملكة علوة المسيحية. ومن جهة أخرى، فإن تنقيبات قسم الآثار بجامعة الخرطوم منذ منتصف السبعينيات الماضية تشير إلى أن منطقة شمال (جبل أم مرحي) وغرب (جبل القيسي) أم درمان تعج بآلاف المقابر (تربو على 4000 مقبرة). وما تم تنقيبه منها لا يزيد عن الـ 200 مقبرة. وتومئ أشكال هذه المقابر (دائرية وبيضاوية) وأثاثها الجنائزي (فخار، أدوات زينة وأسلحة) إلى صلات ثقافية وحضارية بشمال السودان (فرس، تنقاسي، شندي)، وغربه (شمال كردفان) والجزيرة والنيل الأزرق (جبل موية)، وتؤرخ إلى الفترة المتأخرة من العهد المروي ربما تصل إلى القرن الخامس الميلادي (ibid.).

العصر الإسلامي: مملكة الفونج.

تكاد السجلات التاريخية والأعمال الأثرية تخلو من معلومات عن عادييات بارزة بأم درمان تؤرخ لمملكة الفونج (السلطنة الزرقاء) (1504-1821م). غير أن هناك مسجداً أثرياً بقرية التسعين شمال أم درمان بحوالي 35 كيلومتراً يعتقد أن عمره يطال خمسمائة عام (Ahmed2010:1130)، أي بني في مطلع عهد دولة الفونج (لوحه:7). ونلاحظ أن الآثار الإسلامية على هيئة مساجد وقباب وأضرحة كانت شاخصة للعيان في منطقة الخرطوم في ذلك العهد. ويجدر التنويه إلى أن مدينة الخرطوم قد نشأت في فترة دولة الفونج بواسطة شخصيات إسلامية من الفقهاء ورجال الطرق الصوفية من أبرزهم الشيخ أرباب بن علي بن عامر بن أصبح (أرباب العقائد) كما تشير إلى ذلك مخطوطة كاتب الشونة (أحمد بن الحاج أبو علي 1961:124). وبني هذا الشيخ مسجداً بوسط الخرطوم في القرن السابع عشر الميلادي وتوفي بمدينة سنار عام 1691م. وفي عهد الحكم الثنائي (الإنجليزي-المصري) أعاد الملك فاروق الأول

بناء المسجد الذي عرف لاحقا بإسمه .وهو أقدم مسجد في مدينة الخرطوم حاليا. وتوجد بالخرطوم العديد من القباب والأضرحة لمجموعة من الفقهاء في هذا العهد منهم الشيخ إدريس ود الأرباب، الشيخ خوجلي أبوالباز، الشيخ جميل بن محمد، الشيخ حمد ود أم مريوم، الشيخ عبدالرحمن الخرساني والشيخ محمد فايت(انظر الصادق13:2009-24).

العهد التركي - المصري:

نمت المدينة السودانية خلال العهد التركي-المصري (1821-1885م) بشكل ملحوظ ليس فقط باعتبارها مركزا للبلاد إنما بإعتبارها أيضا ظاهرة ملازمة لتطور النشاط الإقتصادي والاجتماعي والسياسي في مرحلة تاريخية معينة. وارتبطت المدينة في ظل الحكم الأجنبي بالسلطة المركزية وبالطابع العسكري فأضفت عليها الصفتان طابعا سلطويا قهريا. ونشأت الخرطوم كعاصمة إدارية عام 1823 م. وانتعشت كمركز تجاري مرتبطا بطرق القوافل. وأصبحت تجارتها تعادل تجارة جميع أقاليم السودان(القدال2002:122). وتتالى عمران الخرطوم خلال أيام التركيّة حيث مر بأربع مراحل. ففي المرحلة الأولى أعيد بناؤها على موقع يختلف يسيرا عن موقعها في عهد دولة الفونج. وفي المرحلة الثانية بنيت العديد من الدور الحسنة في الخمسينيات من القرن التاسع عشر الميلادي. أما المرحلة الثالثة فقد شهدت تطور المواصلات فيها كما جلبت البواخر النيلية. وفي المرحلة الرابعة تسارعت وتيرة بناء الدور الفارهة بالطوب الأحمر وشيدت الحدائق الغناء لسكانها من الحكام والجاليات الأجنبية والأعيان(العطا155:2018-163). وبرز العمران متمثلا في الأبنية الحكومية والمساجد والأضرحة والقباب بوسط الخرطوم شمال شارع البلدية(شارع عباس سابقا) وشرق شارع القصر الجمهوري(شارع فكتوريا سابقا)(الصادق، مرجع سابق:58-62). وبرغم هذا العمران الحديث في الخرطوم وقتذاك، لا نجد له نظيرا بأمران طوال العهد التركي-المصري الذي استمر ما ينيف عن ستين عاما. وتشير نتائج تنقيبات جامعة الخرطوم أن أم درمان كانت قبل عهد المهديّة(انظر أدناه) تتكون من العديد من القرى المتفرقة. وتخصصت في صناعة الصابون وصبغة النيلة الزرقاء(Indigo blue) التي تستخدم في تلوين الثياب. كما وأنها ظلت مركزا مهما للقوافل وتجارة العبور خلال تلك الفترة. ومما ساعد على ذلك وقوعها في ملتقى

طرق تمتد من الجنوب للشمال والغرب باتجاه وادي النيل وتواصل المسير شمالا...درب الأربعين، فمسالك عبور صحراء بيوضة والطرق النيلية (البرية والنهرية) (Hakem.Op.cit:151). ومن الآثار المعمارية لهذه الفترة قبة الفكي الأمين بجزيرة إسلانج على بعد 24 كيلومتر شمال أم درمان. فقد بنيت على النمط الفونجي. وقام هذا الفقيه بدور كبير لدعم الثورة المهدية إبان حصار المهديين للخرطوم عام 1885 (Ahmed2010:1127-1128) (لوحة:8). ومن آثار هذه القبة مسجد بقرية الشيخ الطيب على بعد 30 كيلومترًا شمال أم درمان وعلى مقربة منه توجد آثار لخلوة قديمة. وهذه القرية للشيخ أحمد الطيب السمانى أحد أبرز الفقهاء الذي تتلمذ عليهم الإمام محمد أحمد المهدي في منتصف القرن التاسع عشر (Ahmed.Op.cit:1130).

عهد دولة المهدية:

خلال هذا العهد (1885-1898م) أصبحت أم درمان عاصمة الدولة الجديدة بعد أيام قليلة من سقوط الخرطوم التي كانت في رأي الإمام المهدي عاصمة الترك وهو يود أن يسمح كل أثر بغيض لهم في البلاد. وبدأت أم درمان كمعسكر حربي وإتسعت لاحقًا لتصير كبرى مدن البلاد وحاضرة الدولة المهدية (القدال، مرجع سابق:228).

تم التعرف على عشرات الآثار المعمارية التي تعود لعهد المهدية وتشمل القباب والأضرحة والمساجد والأبنية المدنية والعسكرية. ومن أبرزها: قبة الإمام محمد أحمد المهدي: بنيت على طراز قباب الأتراك (غرفة مربعة تعلوها قبة) ودفن بها في 22 يوليو 1885م (لوحة:9). وهناك قبة الشيخ حمد النيل بشمال أم درمان التي بنيت من الطين وأعيد بناؤها لاحقًا (1965م) على طراز حديث (الصادق 2009:64).

بيت الخليفة: وهو مسكن خليفة المهدي عبدالله بن السيد محمد (تورشين) وفي نفس الوقت كان مقرا للحكم. يتكون البيت من طابقين. وتم بناؤه بالطوب الأحمر المجلوب من أطلال مدينة سوبا المسيحية. وأشرف على تشييده مهندس معماري إيطالي يدعى «بيترو» وتحول حاليًا إلى متحف قومي يزار (الصادق، مرجع سابق 2006:34-35) (لوحة:10).

مسجد الخليفة: بني من الطوب المحروق (الأحمر) بعد أن كان مبنيًا من الطين عند بنائه الأول. وقد طلي بالجير الأبيض. وشارك الخليفة عبدالله مع

قواده في بنائه. وكانت تمارس فيه الصلاة والتعليم الديني. كما كان يقرأ فيه راتب الإمام المهدي إضافة إلى تعليمه للصبيّة القراءة وحفظ القرآن الكريم (الصادق، مرجع سابق: 2009: 26).

سور الملازمين: ويحيط بمدينة أم درمان القديمة (الملازمين). وتبقى جزء منه صغير شرق حي الملازمين (لوحة: 11).

بيت الأمانة (دار الرياضة بأم درمان حالياً): مبنى مستطيل الشكل يقع جنوب بيت خليفة المهدي، بني من الحجر النوبي الرملي واستعمل تراب أم درمان كمونة رابطة وأسواره عالية وسميكة. وتم ترميمه عدة مرات (لوحة: 12).

بوابة عبدالقيوم: وهي آخر بوابات العهد المهدي. وكانت متصلة بالسور الذي يحيط بأم درمان القديمة على الرأس الشمالي (لوحة: 13).

الطوابي: وتعتبر من أهم الاستحكامات الدفاعية التي بناها خليفة المهدي للدفاع المباشر عن العاصمة (أم درمان) واستعداداً لمعركة كرري الفاصلة ضد حملة كتشنر التي أعدت لإسترجاع السودان لدائرة الحكم الأجنبي عام 1898م. وتعتبر الطابية من أصغر المباني العسكرية، بنيت من الطوب الأحمر والحجر للحماية والدفاع. وتتكون من مبنى ذي تفاريج (فتحات) تستخدم بواسطة الجنود الموجودين فيها. ويتدرج شكلها نحو الصغر حتى تصبح مثل التل الترابي ذي الفتحات. ويتراوح قطرها بين (28-30 متراً) وتبعد بحوالي (100-150 متراً) من النيل (المرجع نفسه: 238-240) (لوحة: 14).

خاتمة:

ومما سلف إيراده ، من الواضح أن ثمة صلات ثقافية وحضارية بادئة للعيان بين مختلف المجموعات السكانية التي قطنت السودان القديم (كوش) منذ آجال موعلة في القدم. وتاريخ أم درمان الحضاري كما كشفت عنه المعثورات الأثرية ذو صلة وثيقة العُرى بالعديد من أجزاء السودان القديم. وتومئ كل الشواهد الأثرية المتوفرة إلى قواسم حضارية مشتركة في العادات والتقاليد والفنون لسكان هذا القطر المترامي الأطراف. وهذه الخاصية الفريدة لا تجترحها إلا أمة تشعر بتماييز عن غيرها من الأمم. وهذا لا يتأتى بالطبع إلا ببلوغ الحد الأدنى من التجانس الثقافي والحضاري الذي يسمح بوجود كيان معنوي جدير بأن ينعت بـ «الشخصية القومية»، بغض النظر عن الولاءات

العرقية والجهوية والعقدية. وهذا ما كان من شأن مدينة أم درمان، السودان
المصغر منذ عشرات القرون.

الهوامش:

أ/المراجع العربية:

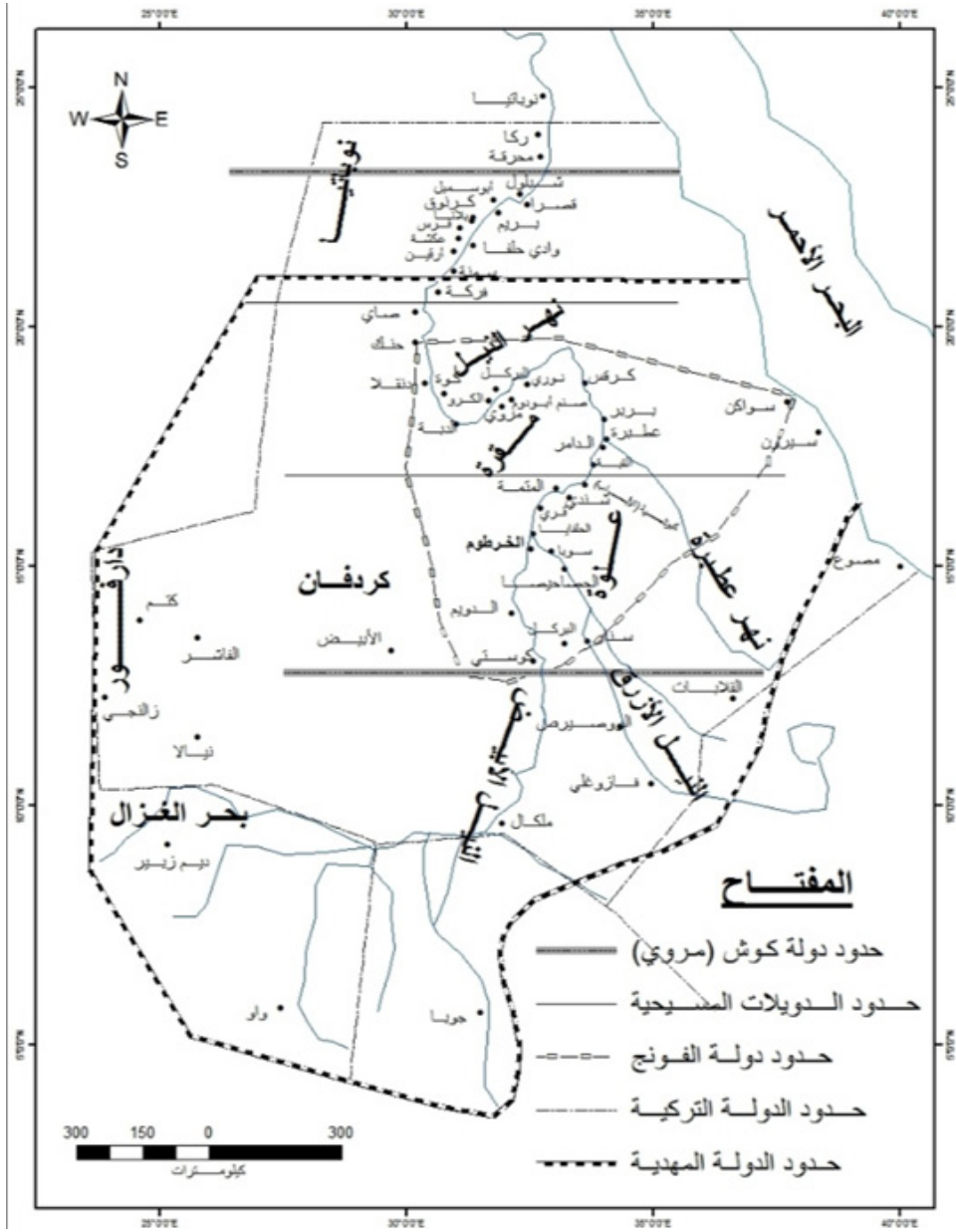
- (1) أبوعلي، أحمد بن الحاج 1961. مخطوطة كاتب الشونة في تاريخ السلطنة السنارية والإدارية المصرية (تحقيق الشاطر بصيلي)، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الإدارة العامة للثقافة، القاهرة.
- (2) العطا، رشا حسن. نشأة وتطور مدينة الخرطوم: دراسة أثرية-بيئية. رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة بحري.
- (3) الصادق، صلاح عمر 2006. دراسات سودانية في الآثار والفولكلور والتاريخ، دار عزة للنشر والتوزيع، الخرطوم.
- (4) الصادق، صلاح عمر 2009. الآثار الإسلامية في منطقة الخرطوم، شركة مطابع السودان للعملة المحدودة، الخرطوم.
- (5) القدال، محمد سعيد 2002. تاريخ السودان الحديث 1820-1955م، مركز عبدالكريم ميرغني، أم درمان (الطبعة الثانية).
- (6) خبير، عبدالرحيم محمد 2005. المنجزات الفكرية والتقنية للحضارة السودانية. مجلة جامعة جوبا للآداب والعلوم، العدد الرابع، يوليو: 22-20058.
- (7) ضيف الله، محمد النور 1984. كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان (تحقيق وتعليق وتقديم يوسف فضل حسن) (الطبعة الثالثة)، دار جامعة الخرطوم للنشر والتوزيع.

ب/المراجع الأجنبية:

- (1) Ahmed, S.B. 2010. The Archaeological and Ethnographical Reconnaissance in the Sabaloka Area (Western Bank of the Nile, North of Omdurman District). **Fourth Cataract and Beyond**. Proceedings of the 12th International Conference for Nubian Studies (eds. J. Anderson & D. Welsby). Belgium: 11251133-.
- (2) Arkell, A. 1949. Old Stone Age in the Anglo-Egyptian Sudan, Khartoum.
- (3) Arkell, A. 1949. Early Khartoum. Oxford University Press, London
- Arkell, A. 1953. Shaheinab. Oxford University Press. London
- (4) Caneva, I. 1983. Pottery Using Gatherers and Hunters at Saggai 1 (Sudan): Preconditions for Food Production. Origini X11. Rome.

- (5)13.Elamin,Y. and Mohammed-Ali Abbas 2004."Umm Marrahi :An Early Holocene Ceramic site north of Khartoum(Sudan)",**Sahara** vol.15:97110-
- (6)El-Hassan,A.2006.Jebel Um Marrihi:Post- Meroitic and Early Medieval Site (c.325650-A.D.) in Khartoum Province(Sudan). **Adumatu** 13:1538-.
- (7).Hakem,A.M.1979."University of Khartoum Excavations at Sarurab and Bauda ,North of Omdurman",**Meroitica**5:151155-.
- (8) 16.Khabir,A.M.1981.Neolithic Ceramics in the Sudan,With Special Reference to Sarurab2.Unpublished M.A.thesis,University of Khartoum.
- (9)17.Khabir,A.M.1987."New Radiocarbon dates for Sarurab2 and the age of the Early Khartoum tradition" ,**Current Anthropology**28:377380 -.
- (10)18.Khabir,A.M.2008."Physico-Chemical Analysis of Neolithic Pottery from Central Sudan",**Adumatu** 17:3342-.
- (11)19.Marshal,K. and A.Adam 1953."Excavation of a mound grave at Ushara",**Kush**1:4046-.
- (12)20.Salvatori,S. et al.2014."Archaeology at El-Khiday :New insight on the Prehistory and History of Central Sudan". **Fourth Cataract and Beyond**,Proceedings of the 12th International Conference for Nubian Studies(eds. :J.Anderson& D.Welsby) Belguim:243257-
- (31) أم_درمان / <https://ar.wikipedia.org/wiki/>

(شكل:1)





(لوحة:1) منظر للقطاع الشرقي من مربعات حفريه موقع السروراب2:شمال أم درمان



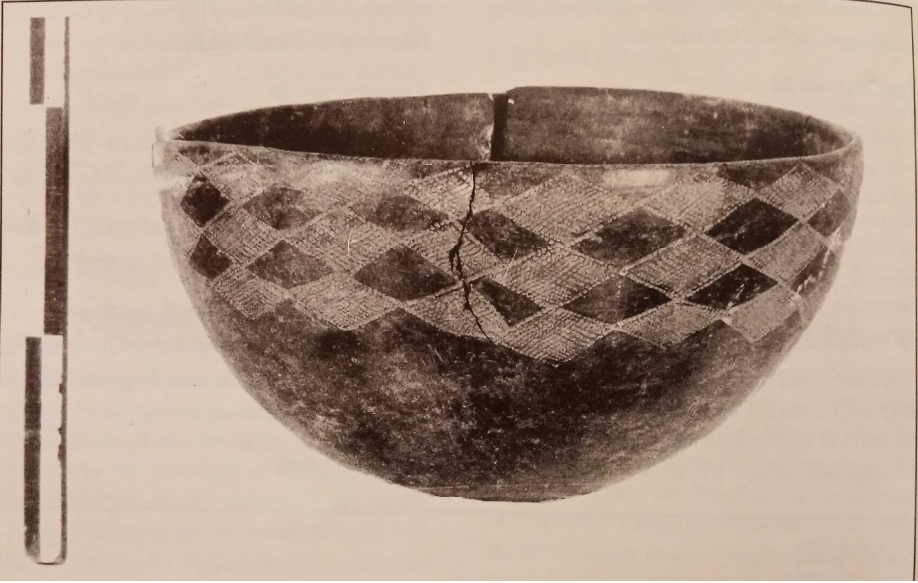
(لوحة:2) نماذج لكسر فخار من العصر الحجري الوسيط بشمال أم درمان، غرب النيل.



(لوحة:3) كسر فخار من العصر الحجري الحديث بشمال أم درمان، غرب النيل.



(لوحة:4) مقبرة تلية (M52) خلال حفريات موقع جبل أم مرعي(ع):الفترة المتأخرة لما بعد عصر دولة مروي.



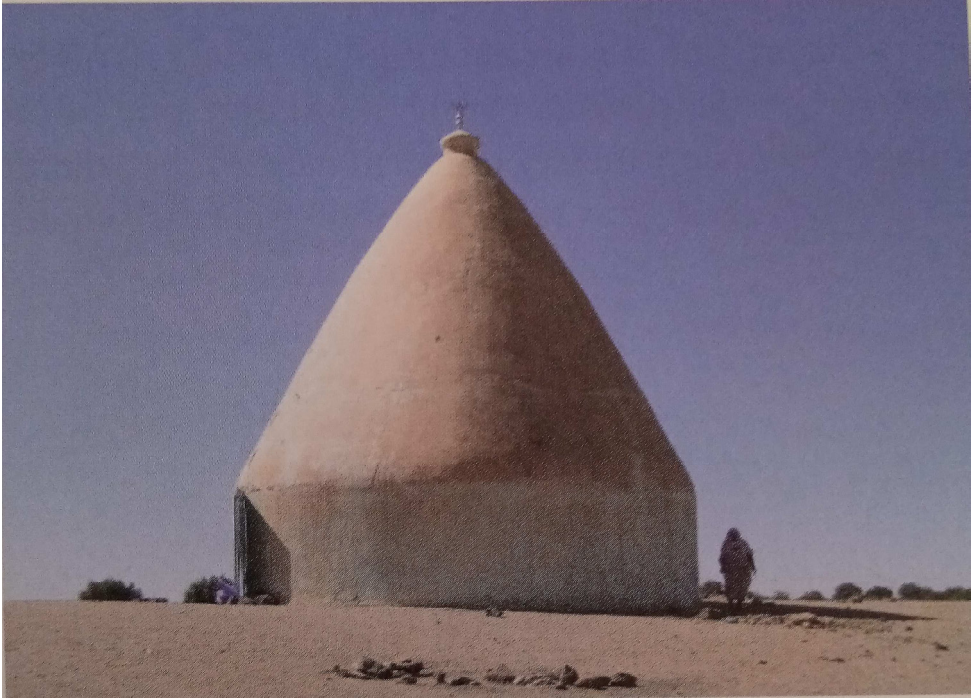
(لوحة:5) طاسة نصف كروية سوداء لامعة مزخرفة بحزوز أشكال هندسية ملئت بصبغ أحمر، موقع جبل أم مرعي المقبرة رقم "70".



(لوحة:6) تميمة لحتحور بتزجيج أخضر: المقبرة نمرة22:موقع جبل أم مرعي.



(لوحة:7) مسجد قرية النسعين المؤرخ لعهد الفونج.



(لوحة:8) قبة الفكي الأمين في جزيرة إسلانج، العهد التركي-المصري.



(لوحة:9) قبة الإمام محمد أحمد المهدي.



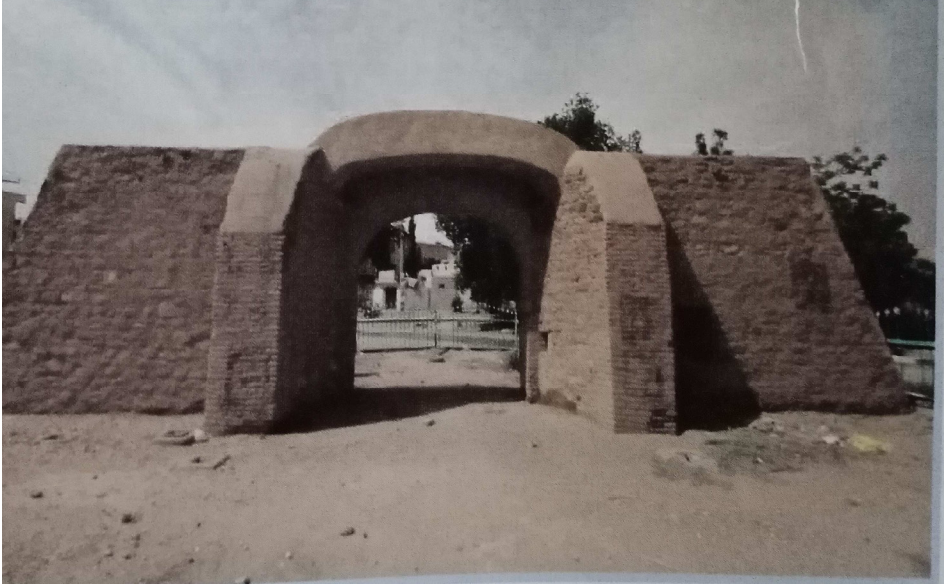
(لوحة:10) منظر جانبي من بيت الخليفة عبدالله.



(لوحة:11) سور الملازمين بأم درمان.



(لوحة:12) بيت الأمانة (دار الرياضة بأم درمان حاليا)



(لوحة:13) بوابة عبدالقيوم.



(لوحة:14) طابية الملازمين بأم درمان